لزوم مالا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورتّب

عنيت بأبي العلاء المعرّي ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تلميذاً . وما زلت معنياً به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجل عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المعري ، وكتابة من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ماساءلت الأدباء وسألت نفسي : متى نظمت اللزوميات وكيف رُتبت ؟ أخطّ الشاعر خطها ثم نظمها ولاءً على ترتيب حروف الهجاء ، فآراؤه فيها متوالية على هذا الترتيب ؛ ماتتضمنه أبيات على رويّ الهمزة مقدم زماناً على مايذكر في أبيات على رويّ الباء وهلم جرّا ؟ أم نظم الرجل مانظم ثم رتبه على حروف الهجاء ، فقدم متأخراً وأخر متقدماً ، مسايرة للترتيب الهجائي ؛ فما يعرف المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا مادلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان ؟ وكنت أقول إنه لابد لمؤرخ أبي العلاء من إن يفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان أو غير مرتبة .

فلما دعاني المجمع العلمي العربي إلى شهود الاحتفال بذكرى أبي العلاء بعد مرور ألف عام على مولده ، وسألني عن الموضوع الذي أوثر الكلام فيه في هذا الاحتفال ، اخترت أن أتكلم في تاريخ اللزوميات وترتيبها . فأعدتُ قراءتها مستوعباً ، متقصياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ، والتي تذكر فيها سنّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة . وراجعت ماأثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه . فانتهيت إلى القضايا التي أسجلها فيما يأتي :

المبحث الأول

متى نظمت اللزوميات

— ١ —

جمهرة شعر أبي العلاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، فمدح وهجا وتغزل ورثى ووصف الخ .

وقد قال أبو العلاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في ريان الحداثة ، وجن النشاط ، مائلا في صغو القريض ، أعتدّه بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البليغ . ثم رفضته رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظم جيده كذب ، ورديئه ينقص ويجدب » .

وقال مستملي أبي العلاء الذي كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الادباء :

« من غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » ،

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المعرة سنة أربعمائة . وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المعرة كالبيتين اللذين مدح بهما القاضي ابن نصر المالكي ، ومرثية جعفر بن علي بن المهذب .

والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم مالا يلزم » .

— ٢ —

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي العلاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطتها ، وتكلف لها ماتكلف من لزوم مالا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :

« كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ، ونزهتها عن الكذب والميط . ولا أزعمها كالسمط المتخذ ، وأرجو ألا تحسب من السميط . فمنها ماهو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد . . . الخ » .

وقال في المقدمة كذلك :

« وقد تكلفت في هذا الكتاب ثلاث كلف :

الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها .

والثانية : ان يجيء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك .

والثالثة : أنه لزم مع كل رويّ فيه شيء لايلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » .

فهذا شعر حدد موضوعه واختير له نظامٌ في القوافي ، وترتيبٌ على الحروف وحركاتها . وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل . وهي خطة تسلى بها في عزلته . فينبغي أن يكون تاريخه متصلا ونظمه متواليا .

وانا ادعي أن ماتضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبي العلاء في عزلته بعد سنة أربعمائة ، وان هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بعد هذه السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال في مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال في مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت في كلام لي قديم إني رفضت الشعر . رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته . والغرضُ ما استُجيز فيه الكذبُ ، واستعين على نظامه بالشُبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسن ، وأمراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جبلوا على الغش والمكر ، فهو إن شاء الله مما يُلتمس به الثواب » .

فهذا النظم الذي توخى فيه العظة والايقاظ كان بعد النظم الذي جرى فيه مع الشعراء ثم رفضه رفض السقب غرسه ، والرأل تريكته .

ودليل آخر أنه ذكر سنه في كثير من أبيات اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ، ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمائة ، إلا بيتاً واحداً في هذه القطعة :

إذا هبت جنوب أو شمال فأنت لكل مُقتاد جنيب

رويدك إن ثلاثون استقلت ولم يُنب الفتى فمتى ينيب

والخطاب في هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر وإما أن يكون بعض اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون

هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزامه الاعتزال ، وكانت سنه حينئذ سبعاً وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجمهرة الكتاب نظمت بعد سنة أربعمائة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع بنظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر في اللزوميات — كما فعل في سقط الزند — رحلته إلى العراق آسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، في غالب الظن ، لا يقال بعد مضي سنين كثيرة على هذه الرحلة :

وما بيَ طرق للمسير ولا السُرى ... لأني ضرير لا تضيء لي الطُرُق
أغربانك السحم استقلت مع الضحى ... سوانح أم مرّت حمائمك الوُرق
رحلتُ فلا دنيا ولا دين نلته ... وما أوبتي إلا السفاهة والخرق

***

يا لهف نفسي على أني رجعت إلى ... هذى الديار ولم أهلك ببغداذا
إذا رأيت أموراً لا توافقني ... قلت الإياب إلى الاوطان أدّى ذا

***

شئمت يا همة عادت شآميـة ... من بعد ما أوطنت عصراً ببغداد

***

وأزيد على هذه الادلة أن أبا العلاء ذكر سنّ الاربعين في اللزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث .

— ٣ —

إن كان المعري شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجع من بغداد أو بعد رجوعه بقليل فكم استمرّ ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التي كتب ؟

يمكن أن نجيب هذا السؤال بوسيلتين ؛ الاولى تتبع الحادثات التي ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم في شعره . والثانية استقراء الابيات التي ذكر فيها سنه .

(١) الحوادث والرجال :

١ — أولا : بنو عامر وطيء :

يذكر أبو العلاء فتناً وخطوباً أثارها بنو عامر وطيء في الشام وما حولها ، ويسمي بعض رجالهم في مواضع كثيرة ، منها :

إذا عامر تبعت صالحا وزجّت بنو قرة الحردبا
وأردف حسان في مائج متى هبطوا مُخصباً أجدبا
وإن قرعوا جبلا شامخاً فليس يُعنف إن يَحدبا
رأيت نظير الدبا كثرة قتيرهمُ كعيون الدبا

ومنها :

ألم تر طيئاً وبني كلاب سموا لبلاد غزة والعريش
ولو قدروا على الطير الغوادي لما نهضت إلى وكر بريش

ويذكر طيئاً وزعيمها حسان في قوله :

قد أشرعت سنبس ذوابلها وأرهفت مُبتر مَعابلها
لفتنة لا تزال باعثة رامحها في الوغى ونابلها
حسان في الملك لا يَحسّ لها تزجي إلى موتها قنابلها

ويقول :

أرى حلبا حازها صالح وجال سِنان على جلّقا
وحسان في سلفي طيء يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار ثغاما على هامهم عُلقا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد خُلقا الخ

وقد رثى للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :

والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغة يأكلون قفارا

***

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا والمَلك في مصر يعتر فارها (١)

(١) الملك في مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (٤٠١ — ٤٢٧) فهو يلوم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تعبث في الارض وهم لاهون بتعثير فارات المسك يتطيبون بها لا بعقر الفوارس . والعتر الذبح .

جعلوا الشفار هواديا لتنوفة مرهاء تكحل بالدجى أشفارها
تكبو زناد القادحين وعامر بالشام تقدح مرخها وعفارها

ويقول :

أيا قيلُ إن النار صال بحرها مقيمُ صلاة والمهند وارس
وبالرملة الشعثاء شيبٌ وولدة أصابهم مما جنيت الدهارس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم فهل مارست من ظلمها ماتمارس
وأحسنُ منكم في الرعية سيرة طُغجٌّ بن جف حين قام وبارس

وقد ذكر المعري هذه الحادثات في سقط الزند كذلك ، إذ قال في القصيدة التائية التي بعث بها الى علي التنوخي بعد رجوعه من العراق :

بيني وبينك من قيس وإخوتها فوارسٌ تذر المكثار سكيتا

ويقول في القصيدة الطائية التي أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد وهو محتجب بعمرة النعمان :

وما أذهلتني عن ودادك روعة وكيف وفي أمثالها يجب الغبط
ولا فتنة طائية عامرية يحرق في نيرانها الجعد والسبط
وقدطرحت حول الفرات جرانها إلى نيل مصر فالوساع بها تقطو
فوارس طعانون ما زال للقنا مع الشيب يومافي عوارضهم وخط
وكل جواد شفه الركض فيهم وَجٍ يتمنى أن فارسه سَقط
ونبّالةٍ من بُحتر لو تعمدوا بليلٍ أناسيّ النواظر لم يخطوا

فما هذه الفتن التي ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

كانت أمور الشام ولا سيما البلاد الشمالية في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس مضطربة بين سلطان الفاطميين والامراء المتغلبين من بني حمدان ومواليهم ومن رؤساء القبائل العربية . وقد استولى صالح بن مرداس الكلابي صاحب الرحبة على حلب في هذا الاضطراب سنة ٤٠٢ . ثم وقعت خطوب ردت حلباً إلى سلطان الفاطميين حيناً . فلما قتل نائب الفاطميين عزيز الدولة سنة ٤١٢ ، وتولى من قبلهم ابن شعبان طمع صالح بن مرداس في التغلب على نواب الفاطميين فحالف اثنين من رءوس العرب هما حسان الطائي

وسنان بن عُليان الكلبي واتفقوا على أن يقتسموا الشام من حلب إلى حدود مصر ، فصارت حلب وما يليها لصالح ، ودمشق لسنان ، والرملة وما يليها إلى مصر لحسان . وذلك سنة ٤١٤ . وقد تقدمت أبيات المعري التي تذكر هذا التقسيم .

هذه حوادث وقع بعضها في العقد الاول من القرن الخامس ومعظمها في العقد الثاني . فهذه الابيات قد نظمت كذلك في هذين العقدين ولا سيما الثاني منهما .

ثانياً — يُذكر صالح بن مرداس في اللزوميات مرات أخر لحادث آخر كان له في نفس المعري أثر باق .

نقل ياقوت عن أبي غالب بن مهذب المعري في حوادث سنة ٤١٧ من تاريخه : « صاحت امرأة يوم الجمعة في جامع المعرة وذكرت أن صاحب الماخور أراد أن يغتصبها نفسها . فنفر كل من في الجامع وهدموا الماخور وأخذوا خشبه ونهبوه . وكان أسد الدولة (صالح) في نواحي صيدا فوصل الامير أسد الدولة فاعتقل من أعيانها سبعين رجلا . وذلك برأي وزيره تادرس بن الحسن الاستاذ . وأوهمه أن في ذلك إقامة للهيبة — قال ولقد بلغني أنه دعي لهؤلاء المعتقلين بآمد وميّا فارقين على المنابر — وقطع تادرس عليهم ألف دينار . وخرج الشيخ أبو العلاء المعري إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة وقال له : مولانا السيد الاجل أسد الدولة ومقدمها وناصحها كالنهار الماتع اشتد هجيره وطاب بَرداه ، وكالسيف القاطع لان صفحه وخشن حدّاه . خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين . فقال صالح قد وهبتهم لك أيها الشيخ . ولم يعلم أبو العلاء أن المال قد قُطع عليهم وإلا كان قد سأل فيه » .

ونقل ياقوت أيضاً عن القفطي أنه وجد على ظهر ديوان الاعشى في مدينة قفط سنة ٥٨٥ ما يأتي : « حكي أن صالح بن مرداس صاحب حلب نزل على معرة النعمان محاصراً لها ونصب عليها المجانيق واشتد في الحصار لاهلها . فجاء أهل المدينة إلى الشيخ أبي العلاء لعجزهم عن مقاومته لانه جاءهم بما

لا قبل لهم به وسألوا أبا العلاء تلافي الامر بالخروج إليه بنفسه وتدبير الامر برأيه إما بأموال يبذلونها أو طاعة يعطونها ، فخرج ويده في يد قائده وفتح الناس له بابا من أبواب معرة النعمان ، وخرج منه شيخ قصير يقوده رجل . فقال صالح هو أبو العلاء فحيّوني به . فلما مثل بين يديه سلم عليه ثم قال : الامير أطال الله بقاءه كالنهار الماتع الخ » .

وهذه الحادثة ذكرها المعري في موضعين من اللزوميات في حرف الدال المكسورة واللام المكسورة . يقول :

تغيبت في منزلي برهة ستيرَ العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الاقل وُحمّ لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً إلى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام وأسمع منه زئير الاسد
فلا يعجنني هذا النفاق فكم نفقت محنة ما كسد

ويقول :

آليت أرغب في قميص نموه فأكون شارب حنظل من حنضل
نجى المعاشر من براثن صالح ربٌّ يفرج كل أمر مُعضل
ماكان لي فيها جناحُ بعوضة والله ألبسهم جناحَ تفضل

فهاتان القطعتان نظمتا في حادث وقع سنة سبع عشرة وأربعمائة . والظن أن نظمهما لم يتأخر عن هذا التاريخ كثيراً .

ثالثاً — يذكر الشاعر « محموداً » في مواضع كثيرة يقول :

يسلك محمود وأمثاله طريق خاقان وكنداج

* * *

أسر إن كنتُ محموداً على خلق ولا اسر بأني الملك محمود
مايصنع الرأس بالتيجان يعقدها وإنما هو بعد الموت جلمود

* * *

لاكانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

* * *

سيموت محمود ويهلك آلك ويدوم وجه الواحد الخلاق

* * *

من محمود الذي كرر المعري ذكره وجعله مثلا في الملوك وقال إنه لايسره أن يكون في منزلته ، وإن الدهر سيبطش به كما بطش بالضعفاء ؟

في تعليقات الطبعة المصرية أنه أمير المعرة إذ ذاك . ولا نعرف من تولى في تلك النواحي ذلك العصر إلا محموداً حفيد صالح بن مرداس . ومحمود هذا تولى الإمارة سنة ٤٥٢ وخلع في السنة التالية ، ثم تأمر مرة أخرى سنة ٤٥٤ ، فدامت له الامارة حتى سنة ٤٦٨ . فقد تولى بعد وفاة المعري .

ولا أدري لماذا أثبت الشيخ الميمني البيت الاول : « يسلك محمود . . . الخ » اول فصل من كتابه عن المعري عنوانه : « هو ووزير محمود بن نصر بن صالح » . نقل في هذا الفصل مايقال عن تدبير محمود هذا لقتل المعري وخلاص المعري بالدعاء. وهي خرافة مروية نفاها الشيخ الميمني وقال إن محموداً تولى بعد وفاة المعري كما قلت . فهل الميمني ، مع نفيه هذه الخرافة ، يظن أن محموداً الذي في البيت هو حفيد صالح ذكره المعري قبل توليه الملك ؟ لاأدري لماذا اثبت هذا البيت في فاتحة هذا الفصل .

والذي أراه أن محموداً الذي أكثر المعري ذكره هو سلطان ذاع صيته في ذلك العصر وضرب المثل بقدرته وغناه ، هو يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند . ولهذا قرنه المعري بالخليفة في البيت :

لا كانت الدنيا فليس يسرني أني خليفتها ولا محمودها

والسلطان محمود تولى الملك من سنة ٣٨٧ إلى سنة ٤٢١ . فهذه الابيات التي تضمنت اسمه نظمت قبل سنة ٤٢١ ولا ريب لان المعري يذكره ذكر الاحياء ، ويقول : « سيموت محمود . . . الخ » . ويزيد هذا وضوحا أن الشاعر يقول في اللزوميات أيضاً :

محمودنا الله والمسعود خائفه فعدّ عن ذكر محمود ومسعود

ملكان لو أنني خيرت مُلكهما وعود صلب أشار العقل بالعود

ومسعود هو ابن السلطان محمود استقر له الملك سنة ٤٢١ بعد أن ظفر

بأخيه محمد . وبقي له السلطان حتى سنة ٤٣٢ . وأما السلطان محمود السلجوقي وأخوه مسعود فقد ملكا في القرن السادس الهجري .

رابعاً — كان أبو القاسم المغربي الوزير ممن أقام بالمعرة وكان يواد المعري ويراسله ، وكان المعري يحفظ له ولابيه من قبل أياديه . فلما توفي رثاه بأبيات مثبتة في اللزوميات . ولا أعرف فيها رثاء لغيره أو مدحاً صريحاً :

ليس يبقى الضرب الطويل على الده ر ولا ذو العباءة الدرحايه
يا أبا القاسم الوزير ترحلـ ت وخلفتني ثقال رحايه
وتركت الكتب الثمينة للنا س وما رحت عنهم بسحايه
ليتني كنت قبل أن تشرب المو ت أصيلاً شربته بضحايه
إن تحتك المنون قبلي فاني منتحاها وإنها منتحايه
أمْ دَفر تقول بعدك للذا ئق لا طعم لي فأين فحايه
إن يخط الذنب اليسير حفيظا ك فكم من فضيلة محّايه

وهذا الوزير توفي سنة ٤١٨ . فهذه القطعة نظمت في هذه السنة .

خامساً — يقول المعري :

ألم ترني وجميع الانام في دولة الكذب الذائل
مضى قيلُ مصر إلى ربه وخلى السياسة للخائل
وقالوا يعود فقلنا يجوز بقدرة خالقنا الآئل
اذا هبّ زيد الى طيء وقام كليب الى وائل

أظن أن قيل مصر المعني في هذا البيت هو الحاكم بأمر الله الفاطمي ، فهو الذي انتظر بعض الناس عودته . والحاكم هلك سنة ٤١١ . فالظاهر أن هذه الابيات نظمت قريباً من هذا التاريخ .

(ب) سن المعري في اللزوميات :

يذكر المعري سنه في اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ؛ تارة يقول بلغت كذا أو جاوزت كذا ، وتارة يقول : إذا بلغ الانسان كذا آن له أن يرعوي أو حان له أن يهلك . وقد عبرت اللزوميات مستقصياً الابيات التي يذكر فيها سنه ؛ فاذا هو يذكر الاربعين مراراً ويذكر الخمسين كثيراً

ولا يذكر ما دون الاربعين إلا مرة واحدة قدمت الكلام فيها ، ويذكر السبعين مرة سأثبتها من بعد .

يقول في الهمزية التي افتتح بها اللزوميات :

إذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نُص لي بين النجوم خباء
أرابيك في الود الذي قد بذلته فأُضعفُ إن أجدى لديك رباء
وما بعد مر الخمس عشرة من صبا ولا بعد مر الاربعين صباء

* * *

ويقول :

خبر الحياة شرورها وسرورها من عاش مدة أول المتقارب
وافى بذلك أربعين فما له عذر إذا أمسى قليل تجارب

* * *

ومق سرى عن أربعين حليفها فالشخص يصغر والحوادث تكبر

* * *

ورميت أعوامي ورائي مثل ما رمت المطيُّ مهامه السفار
وركبت منها أربعين مطية لم تخل من عنت وسوء نفار

* * *

شربت سني الاربعين تجرعا فيا مَقِراً ما شُربه فيَّ ناجع

* * *

ويجوز أن تدل هذه القطعة أنه بلغ ثمانياً وأربعين :

عش يا ابن آدم عدة الوزن الذي يدعى الطويل ولا تجاوز ذلكا
فاذا بلغت وأربعين ثمانيا فحياة مثلك أن يوسد هالكا

وأما ذكر الخمسين فأكثر وأصرح :

حياتي بعد الاربعين منية ووجدان حلف الاربعين فقود
فمالي وقد أدركت خمسة أعقد أبيني وبين الحادثات عقود ؟

* * *

إذا كنت قد جاوزت خمسين حجة ولم ألق خسراً فالمنية لي ستر
وما أتوقى ، والخطوب كثيرة ، من الدهر إلا أن تحل بي الهتر

* * *

إذا طلع الشيب المسلم فحيه ولا ترض للعين الشباب المزوّرا
لقد غاب عن فرديك خمسين حجة فأهلا به لما دنا وتسورا

* * *

وما العيش إلا لجة باطلية ومن بلغ الخمسين جاوز غمرها

* * *

أخمسين قد أفنيتها ليس نافعي بتأخير يوم أن أعض على خمس

* * *

لا خير من بعد خمسين انقضت كملا في أن تمارس أمراضا وأرعاشا

* * *

خمسون قد عشتها فلا تعش والنعش لفظ من قولك انتعش

* * *

علقت بحبل العمر خمسين حجة فقد رث حتى كاد ينصرم الحبل

* * *

كأنك بعد خمسين استقلت لمولدك ، البناء دنا ليهوى

وقد ذكرت الخمسون في ثلاث قطع أخرى ، في حرف الطاء والكاف والميم . ولم تذكر الستون في اللزوميات قط . وجاء ذكر السبعين في قوله :

من عاش سبعين فهو في نصب وليس في العيش بعدها خيره

رجحنا أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد كما قلت آنفاً . وقد عرفنا أنه ذكر سن الاربعين والخمسين كثيراً ولم يذكر الستين قط على برمه بالحياة وتعجله الموت — ولو بلغها وهو ينظم اللزوميات لاكثر ذكرها — فساغ أن نقول إن الرجل نظم اللزوميات من سن الاربعين إلى أن نيّف على الخمسين . وأما السبعون فأغلب الظن أنه لم يعن بها نفسه .

وإن قدرنا أنه المعني بها فقطعة أو قطع قليلة نظمت بعد وألحقت بهذه المجموعة التي نظمت كلها أو جلها في السن التي قدَّرتُ .

ويؤيد هذا أن الحوادث التي ذكرها وقعت كما بينت في أوائل القرن الخامس ولم تتأخر عن سنة ٤٢٠ وكذلك الرجال الذين ذكرهم أحياء كصالح بن مرداس ومحمود بن سبكتكين ماتوا قريباً من هـذا التاريخ . وقـد رثى الوزير المغربي الذي توفى سنة ٤١٨ . وأشار إلى وفاة الحاكم بأمر الله وقد توفى سنة ٤١١ . فكل حادثة مؤرخة نجدها في اللزوميات تقع في العشرين الاولى من القرن الخامس . وكل رجل ذكره الشاعر ذكر الاحياء هلك حول هـذا التاريخ : صالح مات سنة ٤٢٠ ، ومحمود مات سنة ٤٢١ .

واما مسعود بن محمود الذي تولى سنة ٤٢١ فقد ذكره مرة مع أبيه ولم يعد إلى ذكره . فهو لم ينظم في أيام مسعود بعد هلاك محمود ، أو لم ينظم إلا نادراً .

وأعزّز بأمر يستأنس به مضموماً إلى الادلة السابقة ، أن أبا العلاء ذكر في مواضع من الكتاب أنه لم يشب ، وزعم أنه كان جديراً بأن يشيب ، وأنه لا يسره بقاء شعره أسود . يقول :

ويحمل الهم قلبي معفياً جسدي رأسي أحم وظهري غيرُ منأطر

* * *

غرك سود الشعرات التي في الوجه مني وأنا الدالف
كلفتني شيمة عصر مضى هيهات منك العصر السالف

* * *

يا مفرقي هلا ابيضضت على المدى فما سرني أن بت أسود حالكا
قبيح بفود الشيخ تشبيه لونه بفود الفتى والله يعلم ذلكا

* * *

تأخر الشيب عني مثل مقدمه على سواي ووقت الشيب ما حضرا

* * *

ثم ذكر في مواضع كثيرة لا تقل عن عشرة ، شيبَ رأسه وبياض شعره ، مثل قوله :

نمنا على الشيب فهل زارنا طيف لأصل الشرخ منتابُ

* * *

كانت مفارقُ جون كأنها ريش غرابه
ثم انجلت فعجبنا للقار بُدِّل صَربه

* * *

أأذهب فيكمُ أيام شيبي كما أذهبتُ أيام الشباب

* * *

قد شاب رأسي ومن نبت الثرى جسدي فالنبتُ آخر ما يعتو به الزهر

* * *

أيها الشيب لا يريبك من كفي مقص ولا يواريك خطر
إن نهيت النفس اللجوج عن الإثـ ـم وطابت فإنما أنت عِطر

فقد نظمت اللزوميات وشعره أسود ، ثم استمر النظم حتى شاب . وهذا يلائم السن التي ذكرتها والتاريخ الذي حددته . ولو أنه نظمها قبل الاربعين لما ذكر الشيب ، ولما استبطأه . ولو نظمها بعد الخمسين لما ذكر المفرق الحالك والشعرات السود . ولا يجوز أن يدَّعى أنه نظم قبل الشيب واستمر ينظم حتى مات ، وسن الشيب متصلة بالموت . فقد دلت الادلة الاخرى على أنه لم يستمر في النظم طول عمره .

ويمكن أن يقال : إن كان أبو العلاء فرغ من نظم اللزوميات أو كاد حين بلغ الخمسين فكيف ذكر الكبر متبرما ، وطول الثواء متململا ، وذكر دنو الاجل وقرب الرحيل ، وسقوط الاسنان ، في مثل قوله :

طال الثواء وقد أنى لمفاصلي أن تستبد بضمها صحراؤها

* * *

وما زال البقاء يرث حبلي إلى أن حان للعرس انقطاع

* * *

أعلل مهجتي ويصيح دهري ألا تغدو فقد ذهب الرفاق

* * *

تخلفت بعد الظاعنين كأنهم رأوك أخا وهن فما حملوكا

* * *

أيتها النفس لا تهالي شرخي قد مر واكتهالي
لم يبق إلا شفاً يسير قرّب من موردي نهالي

* * *

فمي أخذت منه الليالي وإنني لاشرب منه في إناء مثلم

* * *

رب متى أرحل عن هذه الد نيا فاني أطلت المقام

هذه الابيات وأشباهها تصدر عن الشيخ همّ ، بلغ أرذل العمر ، وذهب جيله وبقي وحده . ولكن المعري له شأن آخر ، فهو يبرم بالحياة في عنفوانها ويقول :

شربت سني الاربعين تجرعا فيا مقراً ما شربه في ناجع

ويرى ان الحياة بعد الاربعين موت ، والوجدان فقد .

حياتي بعد الاربعين منية ووجدان حلف الاربعين فقود

فشكوى أبي العلاء من الضعف ، وهتافه بالموت ، وبرمه بالحياة لا يدل كل حين على الشيخوخة أو الهرم .

وأما قوله :

فمي أخذت منه الليالي وإنني لأشرب منه في إناء مثلم

فسقوط الأسنان كثيراً ما يعرض في السن التي قدّرتُ أنه نظم فيها الكتاب .

وقد ذكر سقوط أسنانه في رسالته إلى أبي الحسن بن سنان ، وقد تقدم إليه باختصار كليلة ودمنة بأمر عزيز الدولة . وعزيز الدولة قتل سنة ٤١٢ ، ولما يبلغ أبو العلاء الخمسين .

المبحث الثاني

ترتيب اللزوميـات

— ١ —

وضع أبو العلاء خطة هذه المنظومة متكلفاً فيها ثلاث كلف كما قال في المقدمة : أن يلتزم في قوافيه حرفاً لا يلزم ، وأن ينتظم حروف المعجم كلها ، وأن يستوفي في كل حرف الحركات الثلاث والوقف .

وقد تبين من تاريخ الحوادث التي ذكرت في هـذا النظم ومن تاريخ الرجال الذين ذكرهم ومن الأسنان المختلفة التي ذكرها أن الترتيب الهجائي لا يساير الترتيب الزمني . أنظر إلى رويّ الأبيات التي أثبتها فيما تقدم ، وإلى تاريخ الحوادث التي تتضمنها والأسنان التي تذكر فيها تر هذا واضحاً . فـلا يسوغ أن نظن أن قطعة على روي الباء مثلاً ينبغي أن يتقدم تاريخها على قطعة في حرف الميم ، وينبغي ألاّ ينظر إلى الترتيب الهجائي في تتبع آراء أبي العلاء في لزومياته .

— ٢ —

ودليل آخر : أنّ كثيراً من القطع المتوالية تتفق في الموضوع أو تتفق في الوزن والقافية بل تتفق في كلمات القافية أحياناً . فلو أنه نظمها ولاء لم يكن للفصل بينها وجه ، وكان يلزم أن تكون قطعةً واحدة ، ولو نظمهـا قطعاً متوالية لم يُجز لنفسه أن يكرر فيها القوافي والمعاني ، فليس الفصل بينها إذاً إلا بأنها نظمت في أحيان مختلفة ثم جمعت .

أنظر إلى هاتين القطعتين ، وهما متواليتان على الميم المضمومة :

العقل يخبر أنني في لجـة ... من باطل وكذاك هذا العالم
مثلُ الحجارة في الملظات قلوبنا ... أو كالحديد فليتهـا لا تالم

ويليهـا :

لم تَلقَ في الأيام إلا صاحباً ... تأذى به طولَ الحياة وتالم
ويُعد كونك في الزمان بلية ... فاصبر لها فكذاك هذا العالم

ويقول من قطعة في حرف الفاف :

مرازبُ كسرى ماوقت مهجة له وقيصر لم يمنع رداه الطارق

وفي قطعة تليها :

وهل أفلت الايام كسرى وحوله مرازبه أو قيصر وبطارقه

فلو أن القطعتين نظمتا ولاء ما كرر هذا المعنى .

وأما القطع المتوالية المتفقة في الوزن والقافية ، والروي وحركته أو سكونه فكثيرة لا تحوج الى التمثيل هنا . والامر كله أبين من أن يطال فيه الكلام .

— ٣ —

وهنا نسأل : إن كان أبو العلاء لم ينظم على ترتيب الحروف والحركات فكيف ضمن الوفاء بما التزم من استيعاب الحروف وحركاتها ؟ إن كان قد نظم على الروي والحركة اللتين تعنّان له دون أن ينتقل من حرف إلى مايليه ومن حركة إلى ما بعدها فكيف استوعب الحروف والحركات ؟

لنا أحد فرضين : إما أن الرجل كان يأمر كاتبه أن يثبت كل حرف في فصل على حدة ، وكان يستعيده قوافي هذا الفصل فيكمل نقصه حتى كملت الحروف والحركات . وإما أنه جعل الكتاب كله مجموعة واحدة على غير تفصيل ، وكان يقصد إلى تغيير الحروف كل حين على غير ترتيب . فلما اجتمع له مقدار كبير من المنظوم رتبه وأكمل نقصه . وبهذا يُشعر قوله في المقدمة : وهذا حين أبدأ بترتيب النظم .

ونحن نجد في الكتاب قطعاً نظن أنها لم تنظم إلا لضرورة هذا الاستيعاب فالثاء المفتوحة ، والذال الساكنة ، والضاد المضمومة ، والطاء الساكنة ، والهاء الساكنة ، لم ينظم في كل منها إلا بيتين اثنين وهما أقل ما ينظم لإنفاذ خطته . وقد قال هو هذا في آخر المقدمة .

— ٤ —

نظم أبو العلاء ملتزما ما لا يلزم ، ومستوفياً الحروف وحركاتها ، ورتب كتابه على الحروف وعلى حركات كل حرف ، وقال في آخر المقدمة :

« وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلا ؛ لكل

حرف أربعة فصول . وهي على حسب حالات الروي من ضم وفتح وكسر وسكون ، وأما الالف وحدها فلها فصل واحد ، لانها لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو بالقطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق » .

وقد أدركت أنا بالتأمل في فصول اللزوميات ، ترتيباً آخر لم ينبه إليه المعري . وهو ييسر على الباحث عن الأبيات في الكتاب ، زيادة على التيسير بترتيب الحروف والحركات . ذلك أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيين .

فنجد البحر الطويل في الفصل مقدماً على غيره ، والمتقارب مؤخراً عن غيره ، والأبحر بينهما على ترتيبها . وليس معنى هذا أنه استوفى في كل فصل الأبحر الخمسة عشر ، بل المعنى أن مايوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

فالذي يبحث عن قطعة أو بيت على الراء المفتوحة — مثلاً — لا يلزمه ، إذا عرف الوزن ، أن يبحث في أبيات الراء المفتوحة كلها ، بل يطلب البحر الذي فيه وزن القطعة أو البيت في موضعه من الراء المفتوحة . وذلك يسير إذا عرف ترتيب الأبحر في العروض وهو أمر أتم .

* * *

هذا ما بدا لي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بدا له ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليتفضل مشكوراً بالادلاء برأيه والإبانة عن حجته .

وكنت هممت أن أتبع هذا البحث بنظرة شاملة في موضوع اللزوميات وترتيب أمهات الآراء فيها مسلسلة ، ولكن عداني عن هذا طول البحث وتجاوزه الحدّ الذي يحده ضيق الوقت وكثرة المتكلمين في حفلات أبي العلاء .

ولعلي أضمه إلى هذا البحث من بعدُ ليكونا بحثاً مجملاً جامعاً مستوعباً اللزوميات : تاريخها وترتيبها وموضوعها . وبالله التوفيق .

عبد الوهاب عزام